Journal of Social Sciences (COES&RJ-JSS)
ISSN (E): 2305-9249 ISSN (P): 2305-9494
Publisher: **Centre of Excellence for Scientific & Research Journalism, COES&RJ LLC**
Online Publication Date: 1st January 2021
Online Issue: Volume 10, Number 1, January 2021
https://doi.org/10.25255/jss.2021.10.1.69.94



The Dimensions of the Prophetic Discourse in the 40 Hadiths Nawawi

Dr. Mahmoud Hussein Ahmad Al-Zuhayre
http://orcid.org/0000-0002-0955-9391

Abstract:
This paper aims at exploring the rhetoric of the prophetic discourse in the Hadiths collected by Al-Nawawi. It is composed of four aspects. Firstly, public discourse by using the words *who* and *all*, or what pertains to a specific incident for a person whose name was not assigned for polite purposes, so that the speech is directed to any recipient or Muslim over time, focusing on the event not on the person and associating actions with their past and present times. Therefore, the rhetoric was expressed as a result of arranging the words, employing them and their beauty in harmony with their context and location. Secondly, the command and prohibition discourse of the individual and the group according to the purpose of the discourse and its rhetoric with the beauty that was brought about in the style and verbal ornaments associated with the status of the recipient. For example, "O, Sons of Adam", "O Young boy", and "O My Servants "in the Qudsi Hadith, employing the method of urging, "May I..?". Such wordings were crowned by the aspect of the wording texts, briefly and shortly in terms. However, it included great meanings and benefits with beautiful phrases and eloquent style, implying social, educational and global dimensions that have their impact on the recipient. These phrases have had their echo in societies and assemblies, such as, "(The value of) an action depends on the intention behind it" and ".. And he who is slow-paced in doing good deeds, his (high) lineage does not make him go ahead.", that have made them general rules and a method of life to be followed.

Key words
Speech, prophetic, dimensions, public speech, command speech, a speech of affection and kindness
Citation:
Al-Zuhayre, Mahmoud Hussein Ahmad (2021); The Dimensions of the Prophetic Discourse in the 40 Hadiths Nawawi; Journal of Social Sciences (COES&RJ-JSS), Vol.10, No.1, pp:69-94; https://doi.org/10.25255/jss.2021.10.1.69.94.

أبعاد الخطاب النبوي في أحاديث الأربعين النووية

د. محمود حسين أحمد الزهيري
قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم
جامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأردن– عمان
البريد الالكتروني:alzuhayry@hotmail.com

ملخص البحث

جرى هذا البحث حول بلاغة الخطاب النبوي في الأحاديث التي جمعها النووي فقام على أربعة محاور، خطاب العموم؛ بلفظ مَنْ وكل، أو ما يخص حادثة معينة لشخص لم يخصص اسمه أدبًا كي يكون الخطاب موجهًا لكل متلق أو مسلم عبر الزمان، فركز على الحدث وليس على الشخص وواءم بين الأفعال بأزمنتها ماضية ومضارعة فبدت البلاغة من جراء ترتيب الألفاظ وتوظيفها وعذوبتها متناسقة مع سياقها وموقعها، وخطاب الأمر والنهي للفرد والجماعة حسب مرام الخطاب وبلاغته وما حمل من جمال في البديع والمحسنات اللفظية مراعاة لحال المتلقي وشأنه فحوت طاقة إيحائية عالية، وخطاب التلطف والتحبب كيا ابن آدم ويا غلام ويا عبادي في الحديث القدسي فوظف أسلوب التحضيض، ألا، وتوج ذلك محور جوامع الكلم بإيجاز وقصر في الألفاظ ومع ذلك تضمنت معان عظيمة وفوائد كبيرة بعبارات جميلة وأسلوب بليغ فشملت أبعادًا اجتماعية وتربوية وعالمية كان لها انعكاسها على المتلقي بأن أراحت نفسه وطمأنت قلبه وغدت تلك العبارات لها صداها وترددها في المجتمعات والمحافل كقوله إنما الأعمال بالنيات ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ما جعلها قواعد عامة في الحياة ومنهجًا يتبع.

كلمات مفتاحية:
خطاب ، نبوي ، أبعاد ، خطاب العموم ، خطاب الأمر ، خطاب التحبب والتلطف .

المقدمة:

جمع الإمام النووي[1] رحمه الله أربعين حديثًا من عيون كتب السنة والمسانيد، وشهرت بالأحاديث النووية"، وجرت عليها شروحات وتعليقات في اتجاهات مختلفة متباينة، فابن دقيق العيد كتب شرحًا، والشبرخيتي كذلك، وبعض المحدثين. كانت أغلب الشروح تتناولها من وجهة شرعية دينية اصطبغت بها على أنها لم تخلو من لفتات لغوية نحوية أو بلاغية ، ثم تلتها دراسات حديثة تناولت الجوانب اللغوية والبلاغية من استعارة وتشبيه ومجاز وكناية ولفتات نحوية ، كدراسة محمد خير الجزاء ،السمات البلاغية في أحاديث الأربعين، وبلاغة الأمر في الأربعين النووية ، لحسين لون بللو، أطروحة بعنوان البلاغة النبوية في الأربعين النووية، لخالد الزويع، ومما يلحظ أن هذه الدراسات أيضًا انصبت على الجانب البلاغي والبياني، فافترقت عن هذه الدراسة، فهذه الدراسة اتخذت هدفًا أرادت إبرازه ألا وهو أبعاد الخطاب النبوي في هذه الأحاديث، إجتماعية، أو إنسانية أو نفسية ، بما أفادته من لغة الخطاب وطريقة العرض.

وقد عرضت هذه الدراسة للأدب النبوي في الأحاديث النووية من حيث الأبعاد النفسية والاجتماعية والسياسية وجمال الخطاب وتلطف توجيهه للناس ، واعترضت مشكلة البحث تنوّع الخطاب وتعدد النصوص في أربعين نص أو ما يزيد ، كل له أبعاده فكيف يجمع بينها وما القاسم المشترك الذي جمعها ، وهل هذه الأحاديث وجهت للناس في أحداث معينة أو من جراء أحداث حصلت أمامه صلى الله عليه وسلم أو أسئلة وجهت لشخصه الكريم ، ثم ما الذي حمل الصحابة رضوان الله عليهم الاهتمام بها وحفظها ، وعرضت قضية أخرى وهي احتواؤها أساليب تربوية تعليمية فكيف عالج تلك المواقف ووجه المؤمنين إليها ، حيث إنها شملت خطاباً يخص معظم شؤون الحياة حتى الحيوانات والبهائم.

كان هدف البحث هو الوصول إلى الرابط الذي جمع تلك النصوص تحت عناوين محددة من عموم وأمر وتلطف وتحبب ثم جوامع الكلم ومن ثم الإيجاز واكتناز المعنى وكثافته مع قلة الحروف والكلمات.

اتخذ البحث منهج التحليل الوصفي فافترق عما سبقه من دراسات فلم ينظر إلى الأحاديث على أنها تشريع فحسب ولا إلى لغتها وبلاغتها وعلو سبكها وجزالة لفظها ، إنما أجرى تحليلاً للنصوص في اشتراك عدة نصوص منها في موضوعات محددة ثم قصد عمق المعاني وكثافة الدلالة.

ثم توصل البحث في نهايته أن تلك الأحاديث لم تكن نصوصاً جامدة ألقيت ثم نقلت بل إنها مثلت دور حياة كامل اتخذها الناس منهجاً عامّاً لشؤون الحياة ، وكان أكثر ما يلفت النظر جمال الخطاب وشموليته ثم التلطف والتحبب الذي رغب المتلقين في تناوله والانصياع لأمره ، بما حمل من قصر العبارة وجوامع الكلم وتناسق الإيقاع ورشاقته ثم أبعد من ذلك كله التصاقها بالأبعاد الإنسانية ، وحلولاً لمعضلات أعجزت المفكرين وأقلقت المؤدبين فترددت على الألسن وفي المحافل.

.

[1] هو الحافظ المحدث الفقيه: يحيى بن شرف بن مُرّي الحزامي، الحوراني النووي، أبو زكريا، محي الدين، ولد في نوا من حوران- دمشق، عام 631هـ، حفظ القرآن صغيرًا له عدة مصنفات، وهو من أشهر مجتهدي المذهب الشافعي. انظر: ابن كثير عماد الدين، البداية والنهاية 13/ 294 ، والسبكي: طبقات الشافعية 5/ 165 .

خطاب العموم

يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم الناس جميعًا وبالأخص المؤمنين، فهو مرسل إلى الناس جميعًا لقوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) سورة سبأ: 28، وأمره أن يبلغ ما أنزل إليه، فقال سبحانه تعالى: (ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) المائدة:67، فكان عليه السلام يوظف ألفاظ العموم وخطابًا لكل من آمن به وسمعه ممن آمن به، فلحظ أن لفظ مَنْ تكرر كثيرًا في هذه الأحاديث النووية، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)[2]، فلفظ مَنْ يندرج تحتها كل من فعل ذلك، ويقصد شمولية عموم الناس من المسلمين، ولما كان عليه السلام ممن شرفه الله بأدب حسن كما روي أنه قال: (أدبني ربي تأديبًا حسنًا)[3]، لذلك وظف لفظًا عامًا من وجهتين؛ أولهما: أنه كان يقصد كل من يعمل عملا ليس عليه أمر الاسلام، وثانيهما: أنه لم يخصص فردًا ما، بل ركز على العمل والصفة لتكون أشمل وأجمل، وبهذا لم تترك اللفظة شاهدًا ولا غائبًا إلا شملته مهما علا قدره أو نزل، ولعل ذلك كان مقصود الخطاب.

وعلى الرغم من أن بعض العموم قد يكون مخصوصًا بشخص معين، إلا أنه من كمال أدبه وحسن خطابه يذكر العموم ولا يخصص، كراهية منه أن يصب من يشمله الخطاب نفور أو حزن أو ردة فعل، فألفاظ العموم تأتي لتشمل جميع الأفراد مثل " من تعمم مطلقًا سواءً كانت شروطًا... أو موصولات أو استفهامية"[4] كما هو ظاهر من قوله صلى الله عليه وسلم: (ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[5]، فإن الشخص المهاجر لأجل المرأة كان معلومًا لديه عليه السلام، إلا أنه لم يذكره بل عمم الخطاب ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة أو عمل هذا العمل، وقد ذكر السابقون أن هذا الرجل هاجر لأجل أن يتزوج امرأة كانت تدعى أم قيس[6]، ومع أنه ذكر سبب الهجرة (أو امرأة ينكحها) إلا أنه أعرض عن اسمه و لقبه أن يواجهه بها، فكانت أبلغ في الحجة وأعذب في الخطاب، فقدمها بلفظ" من" تنبيهًا على أن هذه صفة من هاجر لغير الله ورسوله، وإن لم تكن الهجرة لأجل هذين الاثنين "الدنيا والمرأة" فشمل كل من هاجر لغير الله ورسوله حتى لا يكون من بعض الأشخاص احتجاج بالحديث لغيرها، فكأنه خص الدنيا والمرأة لأهميتهما، لكنها لا تقتصر عليهما، فكل من هاجر لأجل شيء دنيوي شمله الخطاب وعناه، مع كمال الأدب وجمال التوجيه، فصدرها:" إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله"، فاقتصر الخطاب على هذه الجزئية، فما خرج عنها شمله عموم الخطاب .

---

[2] ابن دقيق العيد، شرح الأربعين حديثًا النووية، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة، ص24 .

[3] القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، 18/ 228.

[4] الشنقيطي: محمد الأمين بن المختار، مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر لابن قدامة، دار القلم، بيروت، ص205 .

[5] شرح الأربعين حديثًا النووية، ص9 .

[6] انظر، العسقلاني: ابن حجر أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ - 2001م، 1/ 23.

وإذا كان توظيف مَنْ كما سبق يحمل أدبًا جمًّا وخطاباً حسنًا، فإنه يكون أخرى تلطفًا وحضًا عموميًا لكل من سمع أو بلغه الخطاب، ففي قوله عليه السلام : (من نفَّس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعسرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة)[7]. فالخطاب حمل بشرى لكل من فعل ذلك ترغيبًا وحضًا، وحين تكون مَنْ موصولة[8] لها دلالتها من صلتها ومكانتها، أن ما بعدها كله داخل في حكم من قبلها، فالخطاب جاء لكل من فعل الفعل، وحوى عطفًا وتحننا على من ظهر عليه كربة أو كان معسرًا أو في حاجة إلى من يستر عليه شيئًا، فمن كمال الأدب النبوي أنه حض على ذلك بأسلوب فيه معنى الصلة، آخذًا من دلالة اللفظة جمالا في الأداء، وحثًا لكل من سمع أو وصله الحديث أن يسارع إلى العمل والاستجابة للتحضيض لينال الخير.

ولحظ في ثنايا النص مقابلة واضحة من نفَّس – نفَّس الله عنه، من يسَّر – يسَّر الله عليه، من ستر – ستر الله عليه، لكنه لم يكتف بذلك بل زاد على التنفيس والتيسير والستر أنه حمّل معه الفعل نفسه من الله وهذا لا يدانيه فعل مخلوق قط، ثم الثانية أنه أضاف له فضلا وزيادة في الآخرة، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وتلك جمالية غاية في الأدب النبوي، وأسلوب تربية رفيع قلما يصل إليه المربون، فالمقابلة ما بين الدنيا والآخرة لا يدانيها مقابلة، ولا يتصورها أحد إلا من كان قلبه ينطوي على عمق في الموازنة ما بين الحالتين، لذلك تركه عليه السلام له ليقارن ويوازن ويرى، لهذا وظف الاسم الموصول ليحمل علامة العموم، وفي الوقت نفسه لتكون لأي شخص تخلق بذلك، وكفى به جمالا في الخطاب والموازنة.

ومن تمام الجمالية أنه استخدم الأسماء منكرة مؤمن، مسلم، معسر، ليكون العمل أبلغ في وصول الفعل إلى صاحبه أيًا كان لونه، أو جنسه، أو مكانه، دلالة أخرى إلى أن عمل الخير ليس في حاجة إلى تعريف وشهرة، أو صلة قرابة، أو دم وغيره، تلك لفتة تربوية أدبية، على أن التنكير حمل نكتة الخفاء والبعد عن الظهور والسمعة بين الناس!

ومما يلحظ أن مَنْ توسطت الأفعال، دلالة لتوظيف الحدث بعد اللفظة، كونه أبلغ في أداء وظيفته وتفعيل دوره، فجاء بالأفعال المضارعة؛ نفَّس، يسّر، لأنها تحمل التجدد والاستمرار، لما للكربة والعسر من تلاحق وحضور في المجتمع وبين الناس، لكنه فيما سواهما وظف الفعل الماضي، ستر، سلك، لما للستر والسلوك من دلالة ثابتة لا تقتضي التجدد والاستمرار، فالستر يكون لشيء حصل وانتهى، وكذلك سلوك طريق الخير يعني إلى نهايته لا يتوقف، بخلاف الكربة والعسر، اللتان تجددان فيما بين الناس، وذلك من جماليات ترتيب الألفاظ وتفعيل دورها في النص " والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًا من التأليف

---

[7] شرح الأربعين النووية، ص93 .

[8] ابن هشام: جمال الدين الأنصاري، مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك، دار نشر الكتب الإسلامية، ط(1)، 1979م، لاهور، 1/ 364 .

ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب"[9]، ولا يظن أن ترتيب الأفعال بعد مَنْ إلا من جراء لطيفة لها دورها في تصوير الفعل على وجهه الأكمل والأبلغ فيما يخص قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد وظف الحديث فعلا ماضيًا أفادت دلالته حكمة لطيفة في قوله عليه السلام:" مَنْ عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب"[10] فعدل عن لفظ يعادي إلى عادى لأن مقصود المعاداة هو دوام الخصومة وثباتها كثبات الماضي، وليس مما يتجدد في الخصومة من قضايا اجتماعية ومحاكمة في خصومة ما، فكانت وظيفة الماضي أنها أشارت إلى عظم الإصرار على العداوة العقدية والإيذاء المسبق الثابت وليس إلى المخاصمات والمحاكمات، كما حصل فيما بين الصحابة، فإن خصومات كثيرة حصلت بينهم فضّها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحكم فيها وأرجع الحق إلى صاحبه، ومما يؤكد ما نذهب إليه إشارة السابقين إلى أن عادى بمعنى "اتخذه عدوًّا ولا أرى المعنى إلا أنه عاداه من أجل ولايته"[11] ، أو ربما تكون المعاداة من باب التعصب والعمى القلبي للعدو، وليس للولي لأن الولي لا يعادي إلا من عادى الله. فدقة اللفظ في النص المقدس لها دورها في إبراز المعنى على أكمل وجه حتى لا يسقط في أيدي بعض المتحدثين، أو يتجنى بغير علم في فهمه وبيانه للناس شرحًا وتوضيحًا، "بوسعنا إذًا القول بأن التأويلية العربية الإسلامية استطاعت أن تصوغ قواعد بلاغة تأويلية خاصة بالنص الديني أمتن وأوسع وأعرف بكثير مما توصلت إليه تأويلية النص الأدبي الغربية"[12] وبذا ظهرت بلاغة توظيف الفعل الماضي عدولًا عن المضارع.

ويلمح مشابهًا لها قوله عليه الصلاة والسلام: " مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيره بيده"[13]، وظف الفعل ماضيًا إشارة إلى أن المنكر لا يغير بهذه السرعة كما يظن بعضهم، بل لا بد من فهم أصلا وتروٍ في الإنكار فقد لا يكون منكرًا لجهل المُنْكِر أو عدم علمه؛ هذه واحدة، أما الثانية فإنه إن خشي هلاكًا أو فتنة أكبر فعليه الامساك، فوظف الفعل الماضي حتى لا يكون التغيير بسرعة وفورة غضب كالمضارع في سرعته وتكرر حدوثه وتجدده، فقد يكون المنكر من دقائق الأفعال والأقوال ولا يعلمها العوام[14]، فوجب التريث والفهم قبل ذلك.

وظهر الادب النبوي في قوله عليه الصلاة والسلام: " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام"[15]، حيث إنها شكلت خلاصة تحذير للمتلقي وما يقع من تجارب وأحداث إنسانية في حياته، لا سيما أنه نص مقدس يحمل في جوانبه نصحًا بيّنًا للإنسان في كل العصور" فهناك وضعية موصوفة في العلوم الروحية يعد داخلها الموروث التاريخي في أشكاله موضوعًا للبحث، دون أن

---

[9] الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الاسكندراني، بيروت، دار الكتاب العربي، 1996م، ص10- 11 .

[10] شرح الأربعين حديثًا النووية، ص101.

[11] فتح الباري في شرح صحيح البخاري، 13/ 7834 .

[12] بازي: محمد، التأويلية العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط(1)، 1431 هـ- 2010م، ص91 .

[13] شرح الأربعين حديثًا النووية، ص86

[14] شرح الأربعين حديثًا النووية، ص88 .

[15] شرح الأربعين حديثًا النووية، ص26 .

يمنعه ذلك من التعبير عن حقيقته بطريقته الخاصة، وهو أمر تتميز به النصوص المقدسة أكثر من غيرها، إن الحكمة عندها ليست وعظًا فحسب، إنها حكاية تستعيد من خلالها خبرة ماضية بغاية تعميمها والاهتداء بها"[16]، وعلى ذلك جاء النص يحمل تصويبًا لسلوك الانسان حتى لا يقع في محظور؛ ويكون على علم بما يتصرف ويفعل، ويوظف أفعالا ماضية في صيغتها لأجل الثبات وعدم التردد، لأن كلا من التقوى والوقوع كلاهما إذا ما حصلا لا تغير فيهما ولا تردد، وكأنهما انساقا مع الزمن الماضي وليس للحاضر فيهما نصيب، فكان من جمال الخطاب أنه وظف هذا الفعل الماضي دلالة على أن الحدث تم وخلص منه، ولو كان الفعل مضارعًا لدل على التجدد والاستمرار، وهو ما يتنافى مع التحذير ومنهج الدين! وتكون مَنْ في كلا الموضعين بمعنى الذي لأنها تنزل منزلتها[17]، وذلك مما يدل على جمالية توظيف من قبل الفعل الماضي وموافقتها للمعنى المراد.

ومما يشاكل "مَنْ" خطابًا للعموم لفظ كل، في قوله صلى الله عليه وسلم:" كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس"[18]، فلفظ " كلّ" اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكّر، نحو: (كل نفس ذائقة الموت) آل عمران: 185"[19] ولما كان الخطاب نبويًا للأمة بكافة أفرادها ذكرًا وأنثى، وظف هذا اللفظ ليستغرق أفراد الأمة من غير استثناء، وذلك أبلغ في وصول التوجيه إليهم، لذا أتبعها لفظ "سلامى"، وهي تعني: أنملة، أو كل عظم مجوف صغير، أو عظام صغار طول إصبع، أو أقل في اليد والرجل[20]. ومن ذلك اللفظ سلامى انتقل التركيز في الخطاب من العموم إلى أدق من ذلك، فمن كل أفراد الجنس إلى جزئية من أجزاء جسمه وهي المفصل الصغير، دقة في التصوير والتحديد، مما يثير في النفس البشرية شعورًا بالمسارعة والتصوير لما يراد منه، وتلك إحدى جماليات خطاب العموم، ثم نلحظ أنه أخذ في بيان ما يترتب على الفرد، فقال: تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة"[21]، فلما استعظم الفرد في نفسه من أين لي تلك الصدقات في كثرة عددها وتعدادها، وجهه إلى أن الصدقة ليست مادية نقدية أو طعامًا فحسب، بل فتح له أبوابًا من الصدقة كان يظنها أنها ليست تفي بالغرض، وذلك من رحمته بالأمة وتيسيره على الناس في حياتهم كما قال الله سبحانه: (ونيسرك لليسرى) الأعلى:8، فحين كان الخطاب في البداية بهذا العِظَم، وأضاف إليه قول: كل يوم تطلع فيه الشمس، وكان ذلك يشق على الناس والأفراد على السواء، أتبعها هذا التنوع في الصدقات، تسهيلا عليهم من جانب وبثًا لروح التعاون

---

16 بنكراد: سعيد، سيرورات التأويل، دار الأمان، الرباط، ط(1)، 1433هـ - 2012م، ص143.

17 انظر، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هاروون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط(3)، 1427هـ - 2006م، 105/2 .

18 شرح الأربعين حديثًا النووية، ص70 .

19 مغني اللبيب، 1/ 211.

20 انظر فتح الباري، 6/ 3605، والفيروز أبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط(3)، 1413هـ -1993م، باب الميم فصل السين.

21 شرح الأربعين حديثًا النووية، ص70 .

والتحابب بينهم من آخر، فأدت العبارة وظيفتها حاملة أبلغ وصية وأجمل أسلوب في توجيه الناس إلى الخير.

مما سبق تبين أدب الخطاب النبوي للأمة توظيفًا لمفردات اللغة وعباراتها في عذوبة النطق، ورشاقة الجملة، خاصة أن المتحدث نبي الأمة يخاطبها عبر الزمان مهما تطاول وتعدد.

خطاب الأمر:

الأمر إلزام من الآمر للمأمور، وفي العربية هو أحد أنواع الأفعال" الأمر استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء، وقيل هو القول المقتضي طاعة المأمور بفعل المأمور به "[22]، وحيث إن النبي صلى الله عليه وسلم، معلم الأمة وقائدها كان لا بد من الأمر وصيغته في حديثه للناس وتوجيهه، فالمعلم والمؤدب لا يترك الأمر بحال، لأنه مما تقتضيه الضرورة والتعليم والتوجيه، لذا تنوع أسلوب الأمر في الأحاديث النووية ما بين أمر الفرد وأمر الجمع حسب ما يتناسب مع الموقف والمقام، ففي قوله عليه الصلاة والسلام " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[23]، وظف فعل الأمر حسب سياق الحديث، فحينما كانت التقوى كامنة في النفس ذاتية شخصية وكذلك إتباع السيئة الحسنة تصرف شخصي ذاتي يقوم به الفرد بمفرده فبذلك تبدت صيغة فعل الأمر اتق، أتبع، لأن الفاعل ضمير مستتر كامن في داخل الفعل للإرادة الذاتية الشخصية، لتعلق الفعل في كليهما بالفاعل ما يشعر بأنه بمفرده هو الذي يتق ويتبع، وعندما كان الأمر يتعلق بالمشاركة وظف لفظ" خالِق" فعل أمر من خالَق ثلاثي مزيد، وهو ما يأتي على وزن فاعل، مثل قاتل، وآخذ، ووالي[24]، فالمخالقة تتطلب مشاركة لأنها تماس بين عدة أشخاص، ويظهر ذلك من جراء ما اتبع من قوله خالق الناس، بينما لم يأمر فيما سبق اتق واتبع بالمشاركة والمفاعلة وتلك لفتة لغوية لها أبعادها الاجتماعية النفسية، فالتقوى والاتباع شيئان خاصان فيما بين العبد وربه، على حين أن المخالقة ظاهرة بينة للمجتمع والناس.

ولعلنا نلمس تلك الصيغة في حديثه عليه الصلاة والسلام ووصيته لابن عمه، عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وهوغلام، فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله"[25]، فإن الأمر في احفظ واسأل تدل على الذاتية المحصورة، وليست لها أبعاد على غير المأمور، لأنها داخلية نفسية لا يطلع عليها أحد، ومما يوضح ذلك المطابقة في احفظ واسأل، على الرغم من تطابق اللفظين إلا أن كلا منهما يختلف فحفظ العبد لله هو حفظ أحكامه وشرعه، وحفظ أوامره ونواهيه، وحفظ الله للعبد هو رعاية ومغفرة وتوفيق، وتلك القضايا خاصة بين العبد وربه، ومثلها السؤال فالعبد يسأل الله فيما بينه وبين نفسه لا يطلع على ما في قلبه إلا خالقه وربه، لا سيما كذلك الاستعانة فإنها أمر نابع من ذات العبد، فوظف الضمير مفردًا لذاتيتها وخصوصها، لأن كثيرًا من

---

[22] مذكرة في أصول الفقه، ص187 .

[23] كتاب الأربعين النووية، ضبط: مصطفى البغا، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط(1)، 1400هـ 1980م، ص54 .

[24] الحملاوي: الشيخ أحمد، شذى العرف في فن الصرف، ص19، باب أوزان الثلاثي المزيد، والراجحي: عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م، ص70 .

[25] كتاب الأربعين النووية،ص56 .

صيغ الأمر في هذه الأحاديث جاء بالمفرد تركيزًا على دور الفرد في المجتمع، وقيمة صلاحه واستقامته وانصياعه لأوامر الله، ثم لأجل أن يربي فيهم وازعًا داخليًا إلى تقوى الله ومراقبته، وليس مظهرًا أو تصنعًا، ومن ذلك ما نجده في الحديث الذي سأله أحد الصحابة رضوان الله عليهم، يريد جوابًا شافيًا:" قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولًا لا أسال عنه أحدًا غيرك، قال: قل آمنت بالله ثم استقم"[26]،فإنه وظف فعل الأمر استقم، لما له من أهمية في حياة الفرد الذي ينفع المجتمع ويصلح أفراده وتظهر نتائجه على الأمة والمجتمع، فالأساس هو الفرد، وحين كان السائل مفردًا يريد من السؤال شيئًا خاصًا به ينفعه في حياته وآخرته، وكان عليه الصلاة والسلام يعلم ما للفرد من تأثير في صلاحه واستقامته داخل أسرته ومجتمعه أجابه إجابة جمعت له أمري الدنيا والآخرة والاسلام والإيمان[27].

ويلحظ ذلك أيضًا في حديث" ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس"[28] فإن الزهد ومقتضياته أمر ذاتي شخصي يتحمله العبد المفرد بذاته، وليس له أن يطلبه من غيره أو يحملهم عليه، فجاء الأمر مفردًا للخصوصية والذاتية، وكون الزهد أمر فردي لا جماعي فإنه جعل الزاهد فردًا بالأمر، أزهد، وجعل المزهود فيه ما في أيدي الناس وهم جمع، فحين يزهد الفرد فيما بين أيدي الجمع؛ تحقق تعاليًا خلقيًّا وتربويًّا يزيد من اهتمام الفرد بشأن نفسه منشغلا بها عن غيره، فيتلاشى الحسد والغل والتنافس فيما لا يعود على المجتمع إلا بكل سوء وانحطاط، فالناس مجبولة طباعهم على حب الدنيا، ومن نازع إنسانًا في محبوبه كرهه وأبغضه، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه[29]، ومن هنا جاء أدب النبوة في خطاب المفرد وأمره بما يناسب الحالة التي هو عليها!

واقتضى اللطف النبوي أن يكون الأمر للجمع فيما يخص الناس بكليتهم، إذ إن المخاطبين في ذلك شأنهم واحد يخصهم جميعًا، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم"[30]، فإن الأمر والنهي إنما يشمل المجتمع والجمع، لا يقتصر على المفرد، لما له من أثر على التفكير الجمعي لدى الناس، فجاء الأمر بصيغة الجمع متناسبًا مع السياق لأهميته ولانعكاسه على فعل المجتمع ككل، "وتبقى اللغة وأدواتها فيما يفترض من المؤول أن يربط بين معاني الكلمات داخل بنائها النصي وبينها وبين المعاني التي التصقت بها عبر تطورها التاريخي، أي الوقوف على التفاعل الممكن بين اللغة من حيث هي نسق صوري وبين الخطاب من حيث هو حدث تاريخي إذ إن الخطاب هو التمظهر المحسوس للغة داخل مقتضات أحوال معينة[31].

فلما كان النهي وهو أمر سَلْب بمعنى عدم الفعل، يطيقه كل فرد جاء النهي بالاجتناب والبعد وطرحه جانبًا، وهي أبلغ من غيرها من الألفاظ كلا تقربوه، أو لا تفعلوه أو ابتعدوا عنه، فالاجتناب يدل على

---

26 كتاب الأربعين النووية، ص62 .

27 . شرح الأربعين حديثًا النووية، ص57

28 الأربعين حديثًا النووية، ص91

29 الشبرخيتي: إبراهيم بن مرعي بن عطية، شرح الشبرخيتي على الأربعين حديث النووية، طبع بمصر، ص250 .

30 كتاب الأربعين النووية، ص39 .

31 التأويلية العربية، ص93.

الانحراف عنه بالكلية جمعًا، وجاء ذلك مسندًا إلى واو الجماعة فاعلًا، لعظم الدلالة وقوة النهي" ذلك أن كل كلمة تشتمل على طاقة إيحائية لا

تكشف سرها سوى السياقات المقامية والثقافية التي تتحقق داخلها"[32] هذا فيما يخص النهي، بينما الأمر والتكليف بالفعل فهناك من يطيق، وهناك من يعجز، لذا جاء الأمر" فأتوا" الإتيان حسب الطاقة والاستطاعة فأضاف إليه " منه" ولو بجزء فهو راجع إلى القدرة: (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها) البقرة: 286.

وحينما يكون الإحسان غاية ما يطلبه الانسان، وغاية ما يتعامل به ويتخلق، فإنه في الوقت نفسه لا يقتصر على البشر ذوي المشاعر والأحاسيس إنما تعداه إلى سائر المخلوقات، فقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته"[33]، إن الأمر هنا جاء جمعًا ومفردًا حسب ما يقتضيه السياق وأهمية تتابع الكلام، فاللفظة لا يظهر معناها ويتجلى إلا في سياقها ومقامها، فاللفظ المفرد يتحدد معناه من خلال سياقه في الجملة[34]، فأمر بالإحسان في القتل والذبح، وذلك غاية اللطف والتصرف في العمل " إنه مرتقى للمشاعر البشرية يبلغ القمة التي ليس وراءها شيء"[35]، وجاء الأمر مسندًا لواو الجماعة لأن الفعل هنا مما تتوافق عليه الجماعة وينشر فيهم، فيصبح ظاهرة عامة شائعة بين الناس، ويعم اللطف والإحسان، فأسند الفعل للجماعة إبداعًا في خطاب الناس والأمة، وتناغمًا مع المشاعر المشتركة بين الناس، لأن القتل ربما يكون للقصاص ولمن استحق ذلك، وهو أمر جمع ليس تصرفًا فرديًا فأمر بالإحسان والتلطف بعدًا عن الإيذاء والتعذيب والقسوة والشنيعة في الفعل.

وعندما أراد التصرف الشخصي في الذبح، لم يقف عند الإحسان في الذبح بل أتبعه بأمر آخر ارتقاء بالمشاعر والأحاسيس:" ليحد، ليرح" فالحد إنما لتكون الشفرة أشد مضاء وأعظم أثرًا، سرعة في التنفيذ لئلا يصل العذاب إلى تلك البهيمة، وتتأذى موتًا نفسيًا مرات قبل موتها الفعلي[36]، فجاء الأمر بالحد والإراحة للذبيحة فقط لأجل الرحمة، وتعليمًا للأمة أن تبتعد عن القسوة والغلظة، فجاء الأمر مؤكدًا باللام تشديدًا في الأمر ولفتًا للمتلقي كي يحرص على ما يؤمر به ويتأكد من آلته وفعله، وعلى الرغم من أنه عليه الصلاة والسلام ليس في حاجة لأن يؤكد لأصحابه وأمته أمرًا فإنهم يأخذون أمره لزامًا لا هزل فيه، إلا أنه أكد ذلك حرصًا منه على استجلاب أسماعهم لأهمية الأمر وجمالًا لغويًا وعذوبة في العبارة من جانب آخر.

أما الشق الآخر للأمر وهو النهي بـ "لا" في بعض النصوص فغلب عليها صيغة الجمع، كما في قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانًا"[37] ، فـ "لا" هنا تكون موضوعة لطلب الترك ، وتختص بالدخول على

---

32 سيرورات التأويل، ص318 .

33 كتاب الأربعين النووية، ص52 .

34 الزهيري: محمود حسين، أثر السياق في توجيه المعنى القرآني من خلال جزء عم، دار وائل، عمان، ط(1)، 2014م، ص203 .

35 قطب: محمد، قبسات من الرسول، دار الشروق، القاهرة، ط(17)، 2008م، ص95.

36 قبسات من الرسول، ص96 .

37 كتاب الأربعين النووية، ص99.

المضارع ، وتقتضي جزمه واستقباله[38]، فمطلوب ترك: الحسد، التناجش، التباغض، التدابر، وأسند الفعل لواو الجماعة لما لذلك من دلالة إيحائية عميقة لتسلطها على فعل الجمع، والمجتمع لئلا يكون المجتمع كله على هذه الشاكلة، فتسود روح الكراهية والمقت والضنك، وتتحول الحياة من هناء إلى شقاء إذا غلبت تلك الصفات المقيتة في المجتمع، ولعل فيما يظهر من إيحاءاتها أنها تتلاقى من اثنين فصاعدًا، هذا مقابل هذا؛ فتشيع في الناس فتوردهم المهالك، أما إذا كانت ندرة من بعض الأفراد في المجتمع، فلا يضر ذلك بشيء ملموس، فكأنه عليه السلام أراد ألا تكون صفة المجتمع الغالبة .

ويؤكد ما نذهب إليه أنه أفرد البيع ولم يسنده إلى واو الجماعة لأن البيع يقع من الأفراد والجماعة على السواء، فيكون غالبًا مفردًا لا جمعًا، فكل يختص ببيع لنفسه وحاجته، فأفردها، وأبقى ما سبقها مسندة لواو الجمع، وهي من أبلغ العبارات في المواءمة ما بين فعل الجمع وفعل الفرد، ونلحظ من وجه آخر أن البيع مباح لا غبار عليه إلا فيما نهى عنه الشارع في قضايا محددة بينما التدابر والتباغض والتناجش مما شدد النهي عنه وحرمه .

ويساويها في أمر المفرد قوله عليه السلام: " لا تغضب"[39] فإن الغضب فعل شخصي فردي يظهر على الفرد من جراء تصرفاته وأقواله وأفعاله، لذا جاء النهي عنه مفردًا لا جمعًا لدلالته المفردة لا غير، وربما جاء للحالة التي أقام عليها السائل سؤاله بالوصية، فعلم منه عليه الصلاة والسلام كثرة الغضب فأوصاه بما يليق بحاله وهيئته.

خطاب التحبب والتلطف:

إن صيغة الخطاب النبوي فضلًا عن عذوبتها ورونقها تقطر تحببًا ولطفًا، وذلك مما طبعه الله عليه وصبغه به فقال تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عيه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) التوبة: 128، لذا نلحظ أن خطابه للمؤمنين عمومًا ولأصحابه خصوصًا، تسبقه أخلاقه قبل كلامه، فلقد تبوء الدرجة العليا من الأخلاق كفى أن قال الله تعالى : (وإنك لعلى خلق عظيم) القلم:4 " وهذا هو الذي يَعْجَبُ له أصحابه، ويرونه طبقة في هذا اللسان وطرازًا لا يحسنه إنسان، حتى إن أبا بكر رضي الله عنه، قال له مرة: لقد طفت في العرب، وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك (أي علمك)؟ قال: أدَّبني ربي فأحسن تأديبي"[40]، ومما جاء من خطاب التحبب والتلطف قوله في الحديث القدسي:" عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:" يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا"[41]، هذا حديث قدسي، وهو كما يقول المحدثون وعلماء مصطلح الحديث: " هي أحاديث يحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تصديرها بعبارة تدل على نسبتها إلى الله، لكي يشير

[38] مغني اللبيب، 1/ 271.
[39] كتاب الأربعين النووية، ص51 .
3 الرافعي: مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(9)، 1393هـ - 1973م، ص301 .
[41] كتاب الأربعين النووية، ص70 .

إلى أن عمله الأوحد فيها حكايتها عن الله بأسلوب يختلف اختلافًا ظاهرًا عن أسلوب القرآن، ولكن فيه مع ذلك نفحة من عالم القدس ونورًا من عالم الغيب، وهيبة من ذوي الجلال والإكرام، تلك هي الأحاديث القدسية، التي تسمى أيضًا إلهية وربانية"[42]، ومثل تلك الأحاديث يلمح فيها أن الصياغة والعبارة منه عليه الصلاة والسلام، بينما المعنى من الله وحيًا، فهي حكاية النبي عن ربه، فيلهمه سبحانه بالمعنى ثم هو يقوم بالصياغة كما يرى كثير من العلماء[43]، وبما أن الأمر كذلك من حيث الصياغة، فإننا نلمس هذا التصدير في الخطاب " يا عبادي" وهي من أجلّ أنواع التحبب تلطفًا في استرعاء السمع وجلب الانتباه، فالمولى سبحانه عندما وصف نبيه في كثير من الآيات قال: عبده، عبدنا وغيرها كما في مطلع سورة الإسراء: (سبحان الذي أسرى بعبده) الإسراء:1، وخاطب المؤمنين يا عبادي: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا) الزمر:53، وهو خطاب تحنن واستعطاف[44]، وتلطف لما بعده من تقبل الكلام والاستجابة لما يحويه من أمر، أو نهي، أو إخبار، لبيان سعة الرحمة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، وإنها دعوة للأوبة والأمل والرجاء والثقة بعفو الله سبحانه[45]، فلما كان الحديث القدسي معناه من الله ولفظه من رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا عجب أن تلحظ الرسول عليه الصلاة والسلام، يخاطب الناس تحببًا وتحننًا على أسلوب القرآن الكريم، بخاصة إذا كان الخطاب من الله موجهًا إلى الناس ثم الرسول صلى الله عليه وسلم ينقل هذا الخطاب إليهم ليحببهم في الاستجابة والإقبال عليه، واستبشارًا بما وراءه من هذه العبارة المحببة المستجلبة لآذانهم، لذلك ناداهم عشر مرات متوالية كلها "يا عبادي" لما لهذا النداء من عظيم الأثر في النفس البشرية حين يستشعر أن المنادي هو الله رب العالمين، وأن المنادَى هو العبد أو أنت! فكيف ينعكس ذلك على داخلية النفس؟ تزداد بذلك اطمئنانًا وقربًا، ولعل ذلك مقصود النداء والحديث معًا، لأن نغمة التحنن والتلطف حتى فيما بعدها من قول: تحريم الظلم، والاستغفار والاسترزاق، وطلب الكسوة، وعجز الإنسان حيال عظمة الله وقوته، مما توحي بأن المنادي عظيم مطلق القوة وأن المنادَى يغلبه الضعف والقصور.

على أن النداء لم يقتصر على هذه الصيغة "يا عبادي"، بل جاءت صيغ أخرى كذلك، ففي حديث قدسي يقول عليه السلام:" يقول الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي..."[46]، هذه الصيغة مكررة ثلاث مرات على ما فيها من تلطف، وإنما ناداهم بذلك وبأداة النداء للبعيد، لأنه قد يكون البعيد في حكم النائم والساهي[47]، فأنزلهم بهذا النداء منزلة من يغفل ويسهو عن حكمة خلقه ومقصد وجوده فجلَّلها التحبب والتلطف لاستجلاب السمع، ولولا ذلك لما ذكر بعدها فيضًا من الرحمة

[42] الصالح: صبحي، علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ط(15)، 1984م، ص11 .

[43] علوم الحديث ومصطلحه، ص13 .

[44] الزركشي: بدر الدين محمدبن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ - 2001م، 2/ 266 .

[45] قطب: سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط(15)، 1408هـ - 1988م، 5/ 2058 .

[46] كتاب الأربعين النووية، ص117 .

[47] ابن عقيل: بهاء الدين عبدالله، شرح ابن عقيل، دار الطلائع، القاهرة، 2009م، 188/3 .

والرأفة واتساع المغفرة، ولما كان النداء والأخص أداته" يا" وهي نفسها في المعنى كـ (أدعو)[48]، وذلك مما يستوقف النظر ويُعْمِل الفكر، أنه يدعوهم إليه وهم في غفلتهم ولهوهم وانشغالهم عنه بما لا يريد، إن النداء بهذه العبارة يريح النفس البشرية، حين ذكرها بأساس وجودها وحقيقته، ويردها إلى الحكمة من خلقها، لاسيما آدم عليه السلام وقصته.

إن التلطف في الخطاب لم يقتصر على نداء العامة، بل أخذ خصوصية أدق وذلك قوله عليه الصلاة والسلام لابن عمه عبدالله بن عباس:" يا غلام إني أعلمك كلمات"[49]، فحينما أراد أن يعلمه ناداه بـ "يا غلام" استجلابًا لذهنه وهي مثل لفظة يا فتى تحببًا، كما يقال: يا ولدي أو يا ابني، لكنها لا تليق في مقام النبوة، لأنه عليه الصلاة والسلام ليس أبًا لأحد (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) الأحزاب: 40، لذا قصد لفظ غلام، لأنه أقرب إلى التعليم والتعلم وأخذ الفائدة، والحفظ واستلهام المعرفة، يدل على ذلك أنه اتبع النداء بـ "ياغلام" قوله: "إني أعلمك"، فالمقصود إذن استجلاب السمع للتعليم والإرشاد، فكانت العبارة ترفقًا و تحببًا أشد مما لو قال له: يا ابن عمي، لأن المقصود التعليم والإرشاد، وذلك ليس بسبب القرابة والنسب، فوظف هذا التركيب شحذًا لذهن المتلقي وسمعه، فمقام التعليم يستوي فيه القريب بالنسب وغيره.

وبلاغة في الخطاب جعل المؤمنين يتطلعون إلى منزلة من هم أعلى منهم مرتبة عند الله فحضهم على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم:" إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا)المؤمنون:5، وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) البقرة: 172[50]، صدرها بالمقدمة، أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، ثم لفت أنظارهم إلى ما يتطلعون إليه من علو المنزلة بأكل الطيبات ثم شكر الله عليها بالعمل، فكل مؤمن يرنو إلى أن يكون قريبًا من مرتبة الرسل والأنبياء، فجمال الخطاب أنه وقفهم على ما يتطلعون وترتفع به الدرجات ألا وهو طيب المطعم والمشرب، وطيب الكسب، ثم الاجتهاد في العمل الصالح والاستقامة مع أمر الله، فصدر الحديث بهذه المقدمة، ثم استشهد بالقرآن الكريم حضًا وشحذًا لهممهم تأكيدًا لما يقوله، على الرغم من أنه ليس في حاجة لأن يؤكد إلا أسلوب تلطف وتحبب وتقريب لما يريدون من الارتقاء بالأخلاق والعمل.

وتكون ألا للعرض والتخصيص، ومعناهما طلب الشيء، لكن العرض طلب بلين والتحضيض طلب بحثًّ[51]، وظفت هذه الجزئية في قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل رضي الله عنه، عندما سأله عن عمل يدخله الجنة، ويباعده عن النار، فقال:" ألا أدلُّك على أبواب الخير الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار..."[52]، فألا للاستهلال لما يقول، وحض على الخير وحث عليه، عندما رأى

---

48 ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م، 2/ 279 .

49 كتاب الأرعين النووية، ص56 .

50 كتاب الأربعين النووية، ص41 .

51 مغني اللبيب، 1/ 72 .

52 كتاب الأربعين النووية، ص85 .

في عين السائل وذهنه حبًا وتلهفًا لما يقوله، واسترشادًا لما يعمله فكانت بهذه الأداة تشويقًا لأذن المتلقي وسمعه، وتلطفًا للسائل:" ألا أدلك" فدلالة السائل والطالب أن يتلهف لما يرغب، لكنه قدمها تفتيحًا لأذنه وذهنه.

ووظفها للتشويق والترغيب حين خاطب معاذًا في الحديث نفسه بقوله صلى الله عليه وسلم:" ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟"، وقوله عليه الصلاة والسلام:" ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟"[53]، مكررة ثلاث مرات حينما رأى المخاطب المتلقي متشوقًا ليعلم، وهو معاذ، ويتعلم، فمرة قال: ألا أدلك، ثم ألا أخبرك، ثم ألا أخبرك بملاك ذلك، ما يدل على أن الملقي عليه الصلاة والسلام طبيب النفوس، يستلهم ما في نفس المتلقي، والمتلقي مهيء لأن يسمع ويأخذ ما يقال له، فبادره بهذه الصيغ إشباعًا وتطريبًا لأذنه وسمعه .

ولولا ذلك لما كان لمعاذ أن يقول بلي أحيانًا للازدياد في المعرفة والعلم، وفي أحدها راجعه ليعلم بقوله:" وإنا لمؤاخذون بما نتكلم"، حينها قال له ثكلتك أمك، كنوع من التحبب وإرهاف لأذنه كي يسمع ويحفظ.

جوامع الكلم :

إن للعبارة النبوية في طياتها عبقًاخاصًا نظرًا لعذوبة الألفاظ ولجمعها معان راقية لا توجد في أي عبارة أخرى أيًا كانت عند أحد من الناس، ويكمن سر جمالها وكثافة معناها من جراء تركيبها، فكان عليه السلام يتخيَّر في خطابه، ويختار لأمته أحسن الألفاظ، وأجملها، وألطفها، وأبعدها من ألفاظ أهل الجفاء والغلظة والفحش...وكان يكره أن يُستعْمل اللفظ الشريف المصون في حق من ليس كذلك، وأن يُستعْمل اللفظ المهين المكروه في حقِّ مَنْ ليس من أهله"[54]، فجاءت العبارة النبوية غاية في القصر والإيجاز، ومع ذلك حملت من المعاني ما يحتاج في شرحه إلى فقرات وصفحات، فكان كلامه صلى الله عليه وسلم قصيرًا على حين أن سكوته كان طويلًا يغلب عليه التفكر[55] والتأمل، فقلَّ كلامه وخرج قصدًا في ألفاظه لا يطيل إلا في حاجة وضرورة.

فمن العبارات الموجزة في الأربعين النووية، قوله عليه الصلاة والسلام:"إنما الأعمال بالنيات"[56] فهذا من بلاغة العبارة وقصرها على ما اكتنزت من أبعاد لغوية وفقهية وعمل واجتهاد، فكأنه لم يترك عملا إلا أدخله فيها:" هذا التركيب يفيد الحصر عند المحققين، واختلف في وجه إفادته فقيل لأن الأعمال جمع محلى بالألف واللام مفيد الاستغراق، وهو مستلزم للقصر لأن معناه كل عمل بنية فلا عمل إلا بنية"[57]، هذا وقد أورده البخاري بروايات عدة تصل إلى ست روايات في صحيحه لها صيغ متعددة وطرق مختلفة[58]، ومن

---

[53] كتاب الأربعين النووية، ص86 .

[54] ابن القيم الجوزية: شمس الدين أبو عبدالله بن محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(10)، 1405هـ - 1985م، 2/ 352 .

[55] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص300، وانظر ص324.

[56] كتاب الأربعين النووية، ص17 .

[57] فتح الباري، 1/ 16 ، وانظر كذلك فيما بعدها من صفحات في شرح هذه العبارة العظيمة.

[58] البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، 1414هـ - 1994م، 3/1

بلاغة الجملة أنها شملت كل أفعال العباد ظاهرها وباطنها جليلها وحقيرها، وقد مضى في بداية البحث الحديث عن مناسبته "مهاجر أم قيس"، لكن الأدب النبوي لم يقصر الأمر على شخص أو حادثة وقعت إنما تجاوزها إلى كل عمل ليكون أبلغ وأعم من ذلك بكثير، ويلحظ الأدب التربوي إبقاء فرصة المراجعة على الرغم من خصوصية الحادثة حتى لا يتمعّر وجه صاحب الحادثة، وتكون عليه سُبّة أبد الدهر، فجاء اللطف النبوي بأن ذكر الأعمال مجملة ثم ربطها ربطًا محكمًا بالنيات التي لا يطلع عليها أحد، فبقيت الجملة والعبارة مدوية إلى آخر الزمان وغاب اسم صاحبها وستر، ولم يعرف حتى الساعة من هو، فأي جمال ولطف وأدب ذلك الخلق النبوي!

إن عظم القول من عَظَمَة القائل، وكلما كانت الحكمة تنبع من القائل كان أبقى في الزمان وألصق بالآذان، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم:" فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشُيّد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام"[59]، ففي قوله عليه الصلاة والسلام: " رفعت الأقلام وجفت الصحف"[60] جملة قل عدد حروفها وكلماتها، لكنها في جمالها وتناسق عبارتها شيء يؤكد ما هو مؤكد، أنه كلام النبوة ووحي يوحى، وأحوجت إلى كثير شرح وبيان على ما فيها من وضوح عبارة وعذوبة ألفاظ، فعندما أراد أن يؤكد للمتلقي أن المقادير فرغ منها لا تجديد ولا تبديل، لا نسخ ولا تحويل، شبه له ذلك بأن الأقلام قد رفعت عن الصحف، فلا كتابة بعدها أبدًا، وأن ما كتب قد جف مداده فلا يمّحي ولا ينسخ ولا يبدل، فالأمر استقر، والمقادير قد جرت بما كتب، فلا قلق، ولا خوف، ولا اضطراب، فلا يملك الخلق جميعًا تغيير شيء من مقدور الله[61] أو التدخل به، على ما فيها من أبعاد عقدية وشرعية بعيدة المأخذ عميقة الغور.

لقد كان من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم أن كانت جمله وعباراته يسمع لها نغمًا خاصًا، وحلاوة لا يدانيها حلاوة، أخذ منها المأدبون كنزًا لا يفنى في رسائلهم وأدبهم، ما أضاف إليها على مر العصور رونقًا وطلاوة، وما يزال ذلك شأنهم إلى اليوم[62]، فقوله عليه الصلاة والسلام:" ومن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه"[63] فعلى إيجاز هذه العبارة في مضامينها، فإن بها معنًى كثيفًا وأبعادًا دلالية عميقة، فما كان لنسب أن يرفع شخصًا وضعه عمله أو أخَّره، وما كان لأحد أن يتكئ على نسبه ليرفعه، ويترك عملا ليكون سببًا في رفعته" فمن كان عمله ناقصًا لم يلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي أن لا يتكل على شرف النسب وفضيلة الآباء، ويقصر في العمل"[64] فالنسب والعمل جعلهما الحديث مطيتان لكل أحد من الناس وذلك ما

[59] الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، 2/ 17 .

[60] كتاب الأربعين النووية، ص57 .

[61] كتاب الأربعين النووية، ص57 .

[62] ضيف: شوقي، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ط(7)، ص40 .

[63] كتاب الأربعين النووية، ص103 .

[64] مسلم: الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق نصوصه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ - 1992م، 4/ 2074 .

أفاده الحديث، فإما أن يمتطي النسب أو العمل، فمن امتطى أحدهما وترك الآخر، فلينظر عندها أين يكون، وكأنه يريد أن يضع بين يدي المتلقين قانونًا وقاعدة عظيمة لها أثرها فيما بعد في منظور الخلق، فالنسب ثابت قائم، بينما العمل متحرك يخط الطريق ويوصل من أراد، أما النسب فإنه متفانٍ متآكل على مر الأيام لتقادم عهد الآباء والأجداد، وما كان لأحد أن ينطق بمثل هذه العبارة إلا من أوتي حكمة وعلمًا ألهمه الله إياه.

جاءت هذه العبارة في سياقها الجميل الذي يحث العباد على العمل؛من تنفيس الكرب عن المؤمنين، والتيسير عليهم، وعون بعضهم بعضًا، واتخاذ طريق العلم سلوكًا يفضي إلى الجنة، ثم الأخذ بدرجات ارتقاء الروح صافية في الذكر والتلاوة، ثم ختمها بالعبارة السابقة لبيان أهمية العمل والاجتهاد فيه صغيرة وكبيرة وحقيرة وجليلة، ليكون منهجًا؛ أن من فاته نسب شريف عالٍ، فله من العمل والاجتهاد ما لايفوت ولا ينقضي= العمل والاجتهاد= وتلك من أبلغ عبارات التربية وبناء شخصية الفرد في المجتمع، بل إنه جعل العمل فرصة أعظم بكثير من فرصة النسب الضيقة.

إن العبارة حين يقدر لها أن تجري على شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولسانه الكريم العذب لتفيض شرفًا من شرفه وعبقًا من طيب ملفظه، ونورًا من بهاء نوره، وعذوبة من حسن منطقه،فلا تكاد تخرج حتى تتلقفها الأسماع وتجري بها ألسن متداولة بينهم، كدرَّة نفيسة يحرص كل منهم على امتلاكها والاقتراب منها ولمس بريقها الساطع بالحق، وتنافسًا بينهم في الارتواء من رحيقها المطمئن للنفوس، ففي جوابه للرجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر – جبريل– حينما سأله عن الساعة: قال فأخبرني عن الساعة قال:" ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[65]، إن هذه الجملة في قصرها وإيجازها لتوحي بمعان بعيدة عظيمة، جاءت غاية في الأدب والعلم معًا، مختصرة كثيرًا من الجمل والفقرات، فالساعة أمر غيبي استأثر الله به في علمه لا يطلع عليه أحد فهو القائل سبحانه في السياق نفسه: (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها) النازعات: 42– 43. وقال: (إن الله عنده علم الساعة) لقمان:34. فلما كان أمر الساعة كذلك، وكان السائل يلح على معرفتها، والمسؤول لا يعلمها كان الجواب جمالًا في جمال؛ المسؤول والسائل سواء في شأنها، فلا السائل يدركها ولا المسؤول يعلمها، لذا وظف الجناس غير التام " المسؤول والسائل" مما اتفق فيه اللفظان اتفاقًا غير تام، واختلف فيه اللفظان في بعض الحروف أو شكلها أو عددها وترتيبها[66] أوما يسمى بالتذييل وهو أن تتساوى الكلمتان في الحروف والهيئة ثم يزيد في إحداهما حرف ليس في الأخرى[67] "مسؤول، سائل"، لكن الجملة جاءت في أناقة لفظية وعذوبة نطقية أخاذة، طاوية كل أنواع التكهن والتبصر والظن، قاضية على كل احتمال وحدس لها، لذا نراه عدل عن معرفتها إلى أمارتها وأشراطها، فحينها ألقى إليه بجملة عذبة الألفاظ متناسقة التراكيب، فقال عليه الصلاة والسلام:" أن تلد الأمة ربتها"[68]،

---

[65] كتاب الأربعين النووية، ص22

[66] الجارم: علي، ومصطفى أمين البلاغة الواضحة، دار المعارف، لبنان، ص365 .

[67] البحراني: كمال الدين ميثم، أصول البلاغة، ت: عبدالقادر حسن، دار الثقافة، الدوحة، ط(1)، 1406هـ- 1986م، ص45 .

[68] كتاب الأربعين النووية، ص22 .

فمن بلاغة قصرها وإيجازها أنها لخصت حالة وهيئة للمجتمع، والدنيا حينها لا يعلم كيفيتها إلا الله، لكنها في مجملها تدل على الفساد والاضطراب في العلاقات والود والصلات بين الناس إلى أن تصل للوالد مع الولد، فيكثر العقوق فيخاف الوالد من ولده كما يخاف الرقيق من سيده، أو أن تكثر السراري حتى تضع السرية ولدها أو ابنتها فتصبح سيدة مثل أبيها بينما أمها أم ولد[69].

على أن الأناقة في الجملة جاءت من حيث ترتيب الألفاظ وحسن نظمها في أماكنها ليخدم كل لفظ الذي يليه، ويكون متناسقًا في سياقه، ففي تقديم الولادة على الربة نجد أن الوالدة كانت سببًا في إيجاد ربتها وسيدتها ما يدل على اختلال الزمان وطبقات المجتمع، إذ كيف يكون الوالد عبدًا والولد سيدًا، لذا بدأ بها وأرجع الضمير في ربتها على الوالدة كناية عن الإهمال والترك، أو السهو أو الجهل بمن ولده وحمل به، ثم إنه أكد ذلك "بأن" وهذا ما يوحي أن ذلك يتحقق لا محالة، على الرغم من أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ليس في حاجة لان يؤكد، لكنه آثر أن يؤكد بلاغة في حصول الأمر، لأن المستمعين حينها كانوا من الصحابة، وممن يستعظم حدوث ذلك، ثم إنه قال ربتها ولم يشر إلى سيدتها، وهي أبلغ لأنها من التربية فكأن الولد هو الذي يربي أباه، أو البنت هي التي تُربّ أمها في غاية الفظاعة والبشاعة، لذا نلمس من هذه الجملة بلاغة نبوية جلية المعنى، عظيمة الوقع فيما بين يدي الساعة وأشراطها، فالكلام يؤخذ على أن فيه" براعة عقلية، وثانيهما القوة الروحية المهيبة، القوة الروحية مطلب أصلي من مطالب البيان، علينا أن نفرق بين خدمة العقل وبراهينه واحتجاجه ومناوشاته، وضوء الروح والمحبة التي تستغني عن هذه المكابدات جميعًا"[70].

جاءت عبارات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، مطابقة لواقع الناس من جراء توظيفه لألفاظ ذات دلالة عالية في التعبير عن وصف قائم متجدد في حياة البشر، ففي قوله صلى الله عليه وسلم:" كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها"[71] نلمح أنه وظف لفظًا من ألفاظ العموم"كل" "وهو اسم موضوع لاستغراق أفراد المنكر نحو (كل نفس ذائقة الموت) آل عمران: 185، والمعرف المجموع نحو: (وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا) مريم:95"[72]، فلما جاء بعدها بلفظ الناس وهم اسم لعامة البشر، شمل جميع الخلق منهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومراتبهم، فكانت جملة: كل الناس يغدو، مستغرقة كل أفراد جنسها فكل إنسان يسعى لنفسه، فإلى هنا الجملة عامة غير مخصصة لأحد، أو لفرد دون فرد، أو مجتمع دون مجتمع، فذكر العام، ثم جاء بالخاص بائع معتق، أو بائع موبق، ففي توظيفه لاسم الفاعل بائع، دلالة عظيمة موحية، ويعمل لجريانه على الفعل الذي هو بمعناه وهو المضارع، فهو مشبه للفعل الذي هو بمعناه لفظًا ومعنى، واسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان مستقبلا أو حالًا[73]، فالمعنى يقتضي البيع في الحال أو

---

69 كتاب الأربعين النووية، ص22، وانظر شرح الأربعين حديثًا النووية، ص16 .

70 ناصف: مصطفى، محاورات مع النثر العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رمضان 1417هـ - 1997م، ص25 .

71 كتاب الأربعين النووية، ص67 .

72 مغني اللبيب، 1/ 211 .

73 انظر ابن عقيل بهاء الدين بن عبدالله، شرح ابن عقيل، دار الطلائع، القاهرة، 3/ 78 .

الاستقبال وهذه من دلالات اسم الفاعل، وهي تنطبق على كل فرد من الناس سابقًا ولاحقًا لا يخرج عنها أحد قط.

على أن تتمة الجملة، معتق أو موبق، جاءت كذلك بصيغة اسم فاعل دالة على الحال والاستقبال، ولكن الإيحائية كيف يبيع نفسه وكيف يوبقها! تلك التي تستوقف الفكر تأملا في جمالها وحسن سبكها وصياغتها، لذا فنلمح أنه ألصق الضمير في معتق وموبق كناية عن شدة التلاصق فيما بين اسم الفاعل والضمير العائد عليها كلفظة واحدة، في التلازم وشدة الترابط، فإما أن يعتقها خشية عليها من عقاب الله، فيسلك طريق الصلاح والهدى، وإما أن يغرقها ويغرق معها تلازمًا ما بين الاثنين في تجاوز الحد والمعاصي والذنوب، فيكون بذلك أغرق نفسه وغرق معها، وكذلك في العتق ففي تلاصق هذين الاسمين مع ضمائرهما عجيبة من عجائب الألفاظ النبوية رونقًا وطلاوة في التعبير، على ما فيها من إيقاع صوتي ندي في نهاية كل لفظة "ها" جمالًا معبرًا له وقعه على الأذن وأثره في النفس.

إن النصوص العالية الراقية نصوص مكتنزة بالمعاني والإيحاءات، تجعلها مقصدًا للدراسة والتحليل والتناول من الباحثين، فيلحظ" أن النص مكتف بذاته وأن دلالته في بطنه، وبإمكان المؤلف أن يستحوذ على اللسان، وأن يستعمله بشكل واع من بداية النص إلى نهايته، وفق غاية دلالية مرسومة بدقة"[74]، فحين ننظر إلى نصوص الأحاديث نلمس فيها فكرًا راقيًا ومعان عظيمة لا تتوافر في أي نص آخر سوى القرآن الكريم، فقوله عليه الصلاة والسلام:" ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[75]، بهذه الصيغة العالية كثيفة المعنى على الرغم من إيجازها وقصرها، فإنها حوت من العلم والقضايا ما لا يمكن لأي جملة أن تحمل مثله إلا ما كان من قوله صلى الله عليه وسلم حتى عد كثير من العلماء هذا الحديث الذي حوى هذه الجملة وما سبقها من جمل من الأحاديث الأربعة التي عليها مدار أحكام الإسلام والدين، وأنه يمكن أن ينتزع منه جميع الأحكام[76].

غير أن اللغة والفصاحة بل العمق الدلالي اللغوي في الجملة فاق ألفاظها وكلماتها، وتعدى إلى إيحاءات أكثر عمقًا ودلالة على الرغم من أن كلماتها وألفاظها مما يستخدمه الناس ويجري على ألسنتهم ربما في كل يوم ومجلس ومكان، وليس فيها إلا لفظ "مضغة"، لا نقول إنها غريبة أو صعبة لكنها قليلة الدوران، لكن ترتيبها وتناسقها فيما بينها أكسبها جمالا وعذوبة، فنلحظ أنه وظف أداة الاستهلال "ألا" ووظف كذلك إن مع اسمها وخبرها غير أنه قدم وأخر، ثم جاء بأداة الشرط غير الجازمة "إذا"، ثم إنه وظف الطباق: "صلحت صلح، فسدت فسد"، ثم إنه كذلك وظف التشبيه ما بين الجسد الذي هو عبارة عن كيان أو مملكة وبين القلب الذي هو القائم بها أو ملكها، ثم أبعد من ذلك وأعمق؛ انظر إلى هذا التناسق في الترتيب: إذا صلحت صلح الجسد كله = إذا فسدت فسد الجسد كله؛ بهذا الإيقاع المثير الندي في الوقت نفسه، فإثارته من جراء لفت أذن المتلقي إلى قيمة هذه المضغة التي تسيطر على الجسد كله، إما بالصلاح أو الفساد، أما

---

[74] سيرورات التأويل: ص313 .
[75] كتاب الأربعين النووية، ص33 .
[76] فتح الباري، 1/ 171 .

نداوته فبهذه الفاصلة نهاية كل جملة "كله"، فطريقة توظيف اللغة وضروبها تستوقف النظر، أما من ناحية المعنى والدلالة والشرح فإنها أغنت عن جمل وفقرات وسدّت عن التطويل في البيان والإيضاح بإيجاز بأقل كلمات ومفردات، ثم إنه قاعدة تربوية على مستوى الفرد والجماعة، وعلى مستوى الجماعة والدول، فصلاح الرأس يعني صلاح الجسد، فلما عرَّف هذه المضغة فقال:" ألا وهي القلب"، كشف عن مكنون القلوب وتقلباتها وأوهامها وأفكارها، وما يعتلج فيها من تصورات وتخيلات، ولك أن تتخيل كل قلب بما فيه من أوهام أو أفكار أوتصورات، وما أثر ذلك على الجسد وعلى تصرفاته وأفعاله، إن هذه الكلمات والجمل من جوامع الكلم!

ومما يلمح في أسلوب الأحاديث النبوية أنها حوت حوارًا وتساؤلات في بعضها، ما يثير العقل ويفتِّح تفكيره كي يعي ما يقال؛ فيعقل ويفهم، يحفظ ويحرص "إن المتعلم لا يمكن أن يكتسب معرفة إلا بواسطة تناسل أدوات الاستفهام في ذهنه، ذلك أن إثارة انتباهه لا تتم إلا من خلال بسط حقائق في شكل أجوبة جاهزة، بل يتم من خلال إشراكه في بلورة الحقيقة، وليس هناك أفضل من السؤال للقيام بذلك"[77] كما حصل في حديث وابصة بن معبد رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: جئت تسأل عن البر؟ قلت : نعم، قال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك"[78]، فلما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، عرف بفراسته عليه السلام، ما في نفس صاحبه إلا أنه بادره بالسؤال استثارة لعقله ليكون أكثر تنبهًا لما سيقول، وأكثر حرصًا للسماع والحفظ، فقال له: جئت تسأل عن البر! وهي إحدى طرق التعليم وغرس المعلومة في نفس السائل، ثم بعد ذلك ظهر جوامع الكلم في الإيجاز وحسن التوجيه والتعلم: البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، بهذه القاعدة العظيمة استقر في ذهن السائل والمستفتي، بعد أن جذب سمعه وعقله ليعي ما يقال، ولعل هذه الجملة الجامعة من كلام النبوة أحوجت لمجلدات من الشرح ومئات من الأسئلة والفتاوى لمن أدركها، فكما أن المفتي يعطي حكمه على الظاهر، فإن السائل لا يطلِّع على قلبه وخفايا نفسه إلا الله ثم هو نفسه، فوجهه إلى قلبه أين يكون! وكيف موقفه إزاء هذا الأمر! أمتطمئن أم متردد؟ يحيك في قلبه أشياء وأشياء، فمثل تلك الجمل والعبارات من جوامع الكلم التي لا ينطق بها غيره صلى الله عليه وسلم، فجاء في روايات الحديث التي أثبتها النووي في سياقه:" والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس"[79]، وقوله حاك في صدرك: أي تحرك فيه وتردد، ولم ينشرح له الصدر وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنبًا[80]، والحياكة، أو حاك هو مما يتحرك في القلب والمِشْية كالتبختر والاختيال، وتحريك المنكب والجسد في مشيه[81]، وكأن الإثم حينما يتردد في الصدر والنفس يكون

[77] سيرورات التأويل، ص141 .

[78] كتاب الأربعين النووية، ص80 .

[79] صحيح مسلم، 4/ 1980 ، حديث رقم(2553).

[80] صحيح مسلم، 4/ 1980 ، حديث رقم(2553)

[81] انظر الفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسال، بيروت، ط(3)، 1413هـ ت 1993م، باب الكاف فصل الحاء.

له هيئة مستفزة منكرة، كما ينكر أصحاب النفوس السليمة التكبر في المشيّ والتبختر، فيكون منفرًا في الصدر والقلب، يعتلج به فلا يكاد يستسيغه ويقبله، فمن جماليات الألفاظ النبوية وبلاغتها كيف صور ذلك الإثم داخليًا في القلب والتفكير، على أنه لم يترك الأمر على هذا؛ فإن كان ذلك ليس مؤشرًا على أنه إثم فهناك أمر أخطر وأعمق وربما يكون أكثر ردعًا ألا وهو: "وكرهت أن يطلع عليه الناس"، خشية الافتضاح والعار وملاحقة عيون الخلق!

إن تساؤل المعلم ينبه عقل الطالب أو المتلقي إلى ما قد يغفل عنه، فيأتيه الجواب مختصرًا موجزًا بعبارات حوت علمًا وإثارة للتفكير، ويوظف الاستفهام والتساؤل وسيلة إلى وصول المعلومة، فعندما جاءه أصحابه رضي الله عنهم أجمعين يشكون: ذهب أهل الدثور بالأجور، قال لهم:" أوليس قد جعل الله لكم ما تصَّدَّقون..."[82]، فالتساؤل جاء ليرشدهم إلى أن أبواب الصدقة كثيرة لكنهم لم ينتبهوا إليها، ففي التساؤل والاستفهام" أو ليس" جذب لعقلهم وسمعهم إلى ما لم ينتبهوا له قبل ذلك، أو إلى إرشادهم تعليماً لما لم يعلموه، فكانت أجمع لمعرفتهم وأشد إثارة لتلقفهم العلم، حينها أرشدهم إلى التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ثم لفت نظرهم ما لم يتوقعوه فقال:" وفي بُضْع أحدكم صدقة"، والبضع هو الجماع[83] فجاءت المحاورة والاستفسار بعد هذا:"قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟"[84]!، بهذه الدهشة التي علت جباههم وعيونهم أجابوه عليه الصلاة والسلام، لشيء لم يكونوا ليتصوروه أو يدركوه، حينها وظف المقابلة والقياس، وكلها نابعة من استفسارات وتساؤلات:" أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟:[85]، بهذا القياس الذي لا يملك أي عاقل إلا أن يقول نعم مجيبًا من غير تردد أو إنكار، ولعل هذا القياس هو ما جرى عليه علماء الفقه فيما بعد[86]، غير أنه لم ينتظر منهم جوابًا لعلمه عليه الصلاة والسلام أن مثل هذا لا يخالف فيه أحد بل بادرهم فورًا قائلا:" كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر"[87]، ففي هذه الجملة والجمل قبلها معانٍ بعيدة الغور، عظيمة الأثر في حياة المسلمين فيما بعد، وصارت نبراسًا للأمة في شؤونها أجمع، فبكلمات قليلة موجزة وضح وفتح أبوابًا من العلم والفهم، وحمل عقولا على التفكير فيما يقول، واحتلت كل لفظة مكانها فأعطت دلالات من العلم والفهم والإدراك.

ويؤكد في هذا الموقف أن بعض العبارات والجمل جرت في حديثه عليه الصلاة والسلام وانتشرت حتى غدت تتكرر في مواقف من الحياة كقاعدة عامة فيها لا يحيد عنها أحد حتى ربما في كل المجتمعات حديثها وقديمها" بوسعنا إذًا القول بأن التأويلية العربية الإسلامية استطاعت أن تصوغ قواعد بلاغية تأويلية خاصة بالنص الديني أمتن وأوسع وأعرف بكثير مما توصلت إليه تأويلية النص الأدبي الغربية"[88]، فيعد

---

[82] كتاب الأربعين النووية، ص74 .
[83] كتاب الأربعين النووية، ص75 .
[84]كتاب الأربعين النووية، ص75 .
[85] كتاب الأربعين النووية، ص75 .
[86] شرح الأربعين حديثًا النووية، ص70 .
[87] كتاب الأربعين النووية، ص75 .
[88] التأويلية العربية، ص91 .

قوله صلى الله عليه وسلم" لكن البينة على المُدَّعي واليمين على من أنكر"[89]، فإنها من أقصر العبارات إيجازًا على الرغم من أنها في حاجة إلى شرح وتطويل، حتى وإن كانت ألفاظها سهلة المأخذ قريبة التناول، فترى أن معظم خصومات الناس لا تخرج عن هذه القاعدة: بيّنة يقابلها يمين، واليمين مجمع على أنه على المدعى عليه في جميع المعاملات على خلاف بينهم[90]، فمن قصر عباراتها أنها حوت لفظين لا ثالث لهما، هما الأصل في الجملة، البينة واليمين، أما باقي الألفاظ فإنها من جراء الخصومة، والخصومة لا بد فيها من مدعٍ ومنكر، وبذا يتضح جمال العبارة وإيجازها على ما احتوته من معان وأبعاد دلالية لغوية أو فقهية شرعية.

ويساويها في القصر قوله عليه السلام:" لا ضرر ولا ضرار"[91]. على ما فيها من تذييل في اللفظ وطباق وإيقاع صوتي ضرر... ضرار، ما يعطي بعدًا صوتيًا جميلا،" والضرر عند أهل العربية الاسم، والضرار الفعل فمعنى لا ضرر، أي لا يدخل أحد على أحد ضررًا لم يدخله على نفسه، ومعنى لا ضرار، لا يضار أحد بأحد"[92] فيجعل العبد أو المرء يلتزم بنفسه ألا يضر بأحد ولا يوقع الضرر على غيره، بهذه القاعدة العظيمة التي تكفل للمجتمع كله أن يكون كل فرد فيه آخذ من نفسه بنفسه، رقيبًا وضابطًا لشأنه، فلا يأتي منه ضرر لأحد، وفي الوقت نفسه يأمن من الناس أن يأتيه منهم ضرر مما يجعل المجتمع في سلامة وأمن تام، ومن أبعادها الصوتية؛ تكرير حرف الراء أربع مرات، وهو حرف مكرر بأصل صوته وجرسه، وتلك من الأبعاد البلاغية في الألفاظ النبوية، فكأنه إيحاءً كرر الفعل أربع مرات متتالية لكنه قدمه بحرف النهي "لا" فكأن النهي جاء أربع مرات متتابعة تأكيدًا، وتلك الأبعاد الإيحائية الصوتية لها مكانتها في الدراسات الأدبية ولها بعدها الجمالي العذب في الوقت نفسه، لأن الإيحاء يفهم من المعنى وهو غير مباشر[93] لكنه يفاد من الدلالة والفهم.

لقد كان في جمال منطقه صلى الله عليه وسلم وعذوبة ألفاظه، وبلاغة تراكيبه سر انتشارها بين أصحابه على وجه الخصوص عليه الصلاة والسلام، وبين الناس على وجه العموم، وذلك ما فسّر سر اهتمامهم بجمع أحاديثه، وسهولة حفظها وإبلاغها للناس من بعده، فكان عليه الصلاة والسلام، أعذب الناس منطقًا وأجملهم عبارة وانتقاء لألفاظه، لا يحدث أحدًا إلا بما يحب أن يسمع، فإذا تحدث أطرب أذن المتلقي وأمتع روحه وعقله، تخال اللفظ يبقى يتردد في أذن المتلقي فترة من الزمان حتى ليكاد يطير فرحًا وطربًا مما سمع وأصغى، وذلك ما منحه إياه ربه سبحانه:" وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى" النجم:4. فلو أصغى الخلق لحديثه اليوم، وفهموا ما فهم أصحابه منه لوجدوا تلك المتعة في حديثه كما وجدها أصحابه رضي الله عنهم!

---

89 كتاب الأربعين النووية، ص95 .

90 شرح كتاب الأربعين حديثًا النووية، ص87 .

91 كتاب الأربعين النووية، ص93 .

92 شرح كتاب الأربعين حديثًا النووية، ص83 . .

93 استيتية: سمير، اللسانيات المجل والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط(1)، 1425هـ - 2005م، ص283 .

الخاتمة

هذه الأحاديث جمعها الإمام النووي من عيون الأحاديث التي عليها مدار الإسلام والدين ، وأن أدب الخطاب النبوي تجلت حين كان موجهًا إلى العموم بلفظ "مَنْ وكل" في حادثة لشخص معين لم يكشف عن اسمه أدبًا وخلقًا نبويًّا عظيمًا فغاب الشخص وبقي الأثر والفعل درسًا لعامة الناس والمتلقين، وكان ذلك أبلغ في وصول المقصود من التربية وقواعد الشرع للناس جميعًا، وكان الأدب يتجلى في توظيف كثير من ألفاظ اللغة وجمال وقعها من مقابلة وجناس وطباق، ثم وظف الأفعال بأزمنتها توظيفًا يخدم السياق والمقام والحالة التي عليها المتلقين، وأن خطاب الأمر والنهي جاء للمفرد والجمع سواء حسب المقام والسياق متناسبًا مع الموقف ما يدل على أنه كلام وحي استكنه حال المتلقين وواءم ما بين إذا كان الأمر والنهي يخص الفرد وينعكس أثره على المجتمع أو على الفرد نفسه كقوله لا تناجشوا، لا تحاسدوا ،لا تباغضوا، لا تدابروا، ثم قال لا يبع بعضكم على بيع بعض، فالأربع الأولى لها علاقة بالمجتمع بينما الأخيرة تخص الفرد نفسه أو ما يتعلق به فجاء مفردًا، وغلب عليها ما خص به من لطف ولين للناس جميعًا فخاطبهم بالتحبب واللطف كقوله: يا ابن آدم، يا غلام، يا عبادي، مما يرغب المتلقي في السماع والاجتهاد في العمل والتلهف للسماع والحفظ، ومن التحبب أن استشف تطلع المؤمنين إلى الدرجات العليا عندما قارن بين الأمر الموجه إليهم والأمر الموجه إلى المرسلين، وحضهم بأداة التخصيص "ألا"، وبدت بلاغة الخطاب بجوامع الكلم حيث إن بعض العبارات كانت في حاجة إلى شروح وشروح تطول؛ أجملها وأوجزها ببعض ألفاظ كان لها الأثر الأكبر في المحافل والمجتمعات وبين الناس على اختلاف درجاتهم، مثل إنما الأعمال بالنيات، تلد الأمة ربتها، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها فكانت ألفاظ مكتنزة ومعان مكثفة نحو إذا فسدت فسد الجسد كله، والإثم ما حاك في النفس... كل تلك الأبعاد حملت أصحابه عليه السلام على حفظ كلامه وجعلت كلامه يتردد في آذانهم وأنديتهم، فحملت في طياتها أبعادًا إنسانية عالمية ثم تعدت ذلك إلى التلطف في التعامل مع البهائم رحمة ورفقًا.

المراجع

1. استيتية: سمير، اللسانيات المجل والوظيفة والمنهج، عالم الكتب الحديث، اربد، الأردن، ط(1)، 1425هـ – 2005م.
2. بازي: محمد، التأويلية العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط(1)، 1431 هـ– 2010م.
3. البحراني: كمال الدين ميثم، أصول البلاغة، ت: عبدالقادر حسن، دار الثقافة، الدوحة، ط(1)، 1406هـ– 1986م.
4. البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، 1414هـ – 1994م.
5. البغا: مصطفى، كتاب الأربعين النووية، ضبط، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط(1)، 1400هـ 1980م .
6. بنكراد: سعيد، سيرورات التأويل، دار الأمان، الرباط، ط(1)، 1433هـ – 2012م.

7. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.

8. الجارم: علي، ومصطفى أمين البلاغة الواضحة، دار المعارف، لبنان.

9. الجرجاني: عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمد الاسكندراني، بيروت، دار الكتاب العربي، 1996م.

10. ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990م.

11. الحملاوي: الشيخ أحمد، شذى العرف في فن الصرف .

12. ابن دقيق العيد، شرح الأربعين حديثًا النووية، مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، جدة.

13. الراجحي: عبده، التطبيق الصرفي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.

14. الرافعي: مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط(9)، 1393هـ – 1973م.

15. الزركشي: بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ – 2001م.

16. الزهيري: محمود حسين، أثر السياق في توجيه المعنى القرآني من خلال جزء عم، دار وائل، عمان، ط(1)، 2014م .

17. السبكي: طبقات الشافعية .

18. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، كتاب سيبويه، تحقيق: عبد السلام هاروون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط(3)، 1427هـ – 2006م.

19. الشبرخيتي: إبراهيم بن مرعي بن عطية، شرح الشبرخيتي على الأربعين حديث النووية، طبع بمصر.

20. الشنقيطي: محمد الأمين بن المختار، مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر لابن قدامة، دار القلم، بيروت .

21. الصالح: صبحي، علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ط(15)، 1984م.

22. ضيف: شوقي، العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ط(7).

23. العسقلاني: ابن حجر أحمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ – 2001م .

24. ابن عقيل: بهاء الدين عبدالله، شرح ابن عقيل، دار الطلائع، القاهرة، 2009م .

25. الفيروز أبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط(3)، 1413هـ – 1993م.

26. القرطبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي.

27. قطب: سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط(15)، 1408هـ – 1988م.

28. قطب: محمد، قبسات من الرسول، دار الشروق، القاهرة، ط(17)، 2008م.
29. ابن القيم الجوزية: شمس الدين أبو عبدالله بن محمد ، زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(10)، 1405هـ – 1985م.
30. ابن كثير عماد الدين، البداية والنهاية .
31. مسلم: الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق نصوصه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ – 1992م.
32. ناصف: مصطفى، محاورات مع النثر العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رمضان 1417هـ – 1997م.
33. ابن هشام: جمال الدين الأنصاري، مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك، دار نشر الكتب الإسلامية، ط(1)، 1979م، لاهور.

References:

Al-Asqalani: Ibn Hajar Ahmad Ibn Ali, Fath Al-Bari, explained by Sahih Al-Bukhari, Modern Library, Beirut, 1422 AH - 2001 AD.

Al-Bagha: Mustafa, Kitab Al-Arbaeen Al-Nawawi, Controlled, Institution of Qur’an Sciences, Damascus, i (1), 1400 AH, 1980 CE.

Al-Bahrani: Kamal Al-Din Maytham, Usul Al-Balaghah, T: Abdul Qadir Hassan, Dar Al-Thaqafa, Doha, ed (1), 1406 AH - 1986 AD.

Al-Bukhari: Muhammad bin Ismail, Sahih Al-Bukhari, Dar Al-Fikr, 1414 AH - 1994 AD.

Al-Fayrouz Abadi, Majd al-Din Muhammad Ibn Ya’qub, Al-Qamoos Al-Muheet, Foundation for the Message, ed (3), 1413 AH -1993 AD.

Al-Jahiz: Abu Uthman Amr Ibn Bahr, Al-Bayan and Al-Tabiyyin, edited by Abdul-Salam Haroun, Dar Al-Jeel, Beirut.

Al-Jarim: Ali, and Mustafa Amin, the Clear Rhetoric, Dar Al Ma'arif, Lebanon.

Al-Jarjani: Abd al-Qaher, Asrar al-Balaghah, edited by: Muhammad al-Iskandarani, Beirut, Arab Book House, 1996.

Al-Qurtubi: Abu Abdullah Muhammad bin Ahmed Al-Ansari, the Compiler of the Rulings of the Qur’an, the Arab Book House.

Al-Rafi'i: Mustafa Sadiq, The Miracles of the Qur’an and the Prophetic Rhetoric, House of the Arab Book, Beirut, ed (9), 1393 AH - 1973AD.

Al-Rajhi: Abdo, The Morphological Application, Dar Al-Nahda Al-Arabiya, Beirut, 1979.

Al-Sabki: Layers of Shafi'i.

Al-Saleh: Subhi, Science of Hadith and Its Terminology, Dar Al-Ilm for millions, Beirut, Edition (15), 1984 AD.

Al-Shabrakhiti: Ibrahim bin Mari bin Attiyah, Explanation of Al Shabrakhiti on the Forty Hadith Al-Nawawi, printed in Egypt.

Al-Shanqeeti: Muhammad al-Amin ibn al-Mukhtar, Memorandum on Usul al-Fiqh on Rawda al-Nazir by Ibn Qudama, Dar al-Qalam, Beirut.

Al-Zarkashi: Badr Al-Din Muhammad Bin Abdullah, Al-Burhan in the Sciences of the Qur’an, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, 1422 AH - 2001 AD.

Al-Zuhairi: Mahmoud Hussein, The Effect of Context on Directing the Qur’an Meaning through Juz 'Amma, Dar Wael, Amman, i (1), 2014 AD.

Bazzi: Muhammad, The Arabic Hermeneutics, Arab Science Publishers, Algeria, 1 ed., 1431 AH - 2010 AD.

El-Hamalawy: Sheikh Ahmed, the scent of custom in the art of exchange.

Estetia: Samir, Linguistics, the Majl, Function, and Method, Modern Book World, Irbid, Jordan, ed (1), 1425 AH - 2005 AD.

Guest: Shawky, the Islamic Era, Dar Al Ma'aref, Egypt, Edition (7).

Ibn al-Qayyim al-Jawziyyah: Shams al-Din Abu Abdullah bin Muhammad, Zad al-Ma'aad in the guidance of Khair al-Abad, T: Shuaib al-Arna'out, Foundation for the

Message, Beirut, Edition (10), 1405 AH - 1985 CE.

Ibn Aqeel: Bahaa Al-Din Abdullah, Sharh Ibn Aqil, Dar Al-Talaa ', Cairo, 2009 AD.

Ibn Daqiq Al-Eid, Explanation of the Forty Hadiths Al-Nawawi, Printing, Press and Publishing Corporation, Jeddah.

Ibn Hisham: Jamal Al-Din Al-Ansari, Mughni Al-Labib on the Book of Al-A`rib, edited by: Mazen Al-Mubarak, Islamic Book Publishing House, Edition 1, 1979 AD, Lahore.

Ibn Jani: Abu Al-Fath Othman, Characteristics, edited by: Muhammad Ali Al-Najjar, House of General Cultural Affairs, Baghdad, 1990 AD.

Ibn Kathir Imad al-Din, the beginning and the end.

Muslim: Imam Abu Al-Hussein Muslim bin Al-Hajjaj, Sahih Muslim, Verification of Its Texts, Muhammad Fuad Abd Al-Baqi, Dar Al-Kutub Al-Ulmiyyah, Beirut, 1413 AH - 1992 AD.

Nassef: Mustafa, Conversations with Arabic Prose, World of Knowledge Series, Kuwait, Ramadan 1997 - 1417 A.D.

Pinkrad: Said, Processes of Interpretation, Dar Al-Aman, Rabat, ed. (1), 1433 AH - 2012 AD.

Qutb: Muhammad, Kisses from the Messenger, Dar Al-Shorouk, Cairo, 17th Edition, 2008 AD.

Qutb: Sayyid, In the Shadows of the Qur’an, Dar Al-Shorouk, ed. (15), 1408 AH - 1988 AD.

Sebawayh, Abu Bishr Amr bin Othman, Book of Sebwayh, edited by: Abd al-Salam Haroon, Al-Khanji Library, Cairo, (3) ed., 1427 AH - 2006 AD.